

هل قرأت سعادته؟ - د. تيسير كوى

يتألم تلامذة أنطون سعادته أشد الألم عندما يجدون في عقيدتهم حلولاً ناجعة للمصائب كافة التي يعاني منها أهل سورية الطبيعية كلهم وحتى أهل العالم العربي، وهي المصائب التي يختصرها تعبير التخلف العميق بكل أوجهه العلمية والثقافية والروحية والاقتصادية والتربوية الخ... وهو التخلف الذي شجع ويشجع قوى الشر كافة في العالم وما أكثرها وتعاضم تكاثرها، على التناول وأكثر من التناول على الأهل المشار إليهم أعلاه. فالسوريون القوميون الاجتماعيون يجدون في عقيدتهم خلاصاً من هذا التخلف ومن كل مظاهره. ففيما يعم سورية التشرذم والانقسام والحلول العشوائية المائعة وغير المجدية يشعر القوميون الاجتماعيون أنهم نواة أمة متماسكة متجددة موحدة الأهداف والروحية. فسعادته لم يأت بعقيدة كلامية عبثية بل بحلول لمشاكل أمته يعيدها إلى صف العطاء الإنساني الذي عرفت به وذلك بعدما درس هذه المشاكل بالعمق الذي تتطلبه ثم اندفع يقترح مبادئ بسيطة محيية يحفزها حب عميق لا يستطيع عاقل أن يشك فيه بعد وقفة عز بطولية عز نظيرها في فجر الثاني من تموز عام 1949 الذي تم إعدامه فيه.

كان سليم الحلبي من أحب الناس إلى قلبي نال إجازته الجامعية الأولى من جامعة القاهرة لأنه كان يحب مصر ويعتبرها جزءاً حيويًا من "وطنه". كان سليم بالفعل من معاصري ورفاق ميشيل عفلق وزكي الأرسوزي وصالح الدين البيطار، فقد كانت عقيدته "بعثية" لكنه لم ينتم رسمياً إلى حزب البعث على حد علمي. كان إذاً ذكر أنطون سعادته في مسمعه يبدي نفوراً بينا يصل إلى حد الاشمئزاز منه ومن عقيدته لأن سعادته في رأيه لا يمجّد "العروبة" بمفهومها التقليدي ولا يمجّد العرب وتاريخهم ولا يتغنى بها وبهم. هذا إلى أن حدث أمران هزّاه وحملاه على إعادة النظر في آرائه ومواقفه ومعتقداته.

سألته مرة عما إذا كان قرأ سعادته قراءة تتناسب مع مستواه الثقافي. فقد نال الدكتوراة في المجال الفلسفي التربوي من جامعة أوروبية مرموقة بإشراف وتوجيه علم من أعلام ذلك التخصص. اعترفت له بالأمانة والصدق بأنه أقر من دون تردد أنه استمد معظم ما كان "يعرفه" عن سعادته مما قيل له عن هذا المفكر العظيم وتأثر إلى حد

يشعر القوميون الاجتماعيون
أنهم نواة أمة متماسكة متجددة
موحدة الأهداف والروحية.

بعيد بالفكرة القائلة أن سعادته ينكر عروبة الجزء الشرقي الشمالي من العالم العربي (أي سورية الطبيعية المؤلفة من سورية الحالية والعراق ولبنان والأردن وفلسطين والاسكندرون وكيليكيا وجزيرة قبرص). وكأن سعادته بذلك ينكر وجود الله بينما كان بالفعل يعرب عن إيمان عميق "جديد" بقومية سورية تعني في المقام الأول ولاء للأرض السورية ولتاريخ الأقاليم المختلفة التي تعاقبت على العيش فيها منذ ما قبل التاريخ الجلي وتفاعلت مع أرضها وأنتجت، بشهادة علماء التاريخ والعلوم الإنسانية كافة، حضارة عريقة ينعم بثمارها حالياً الجنس البشري كله. ألم يقل أحدهم إن كل من يسكن في هذه الكرة الأرضية يجب أن يعتبر أن له بالفعل وطنين وطنه وسورية بسبب ما أعطاه السوريون للإنسانية عبر تاريخهم الطويل.

في مطلع الستينات من القرن الماضي حاول الحزب السوري القومي الاجتماعي قلب الأوضاع

السياسية في الجمهورية اللبنانية بحركة عسكرية مدنية لم يكتب لها النجاح فعمدت السلطات اللبنانية وقتها إلى التنكيل الشنيع بأعضاء الحزب كافة بعدما كان هذا التنكيل جاء بعد تنكيل مماثل وأشد بشاعة مارسه السلطات اللبنانية في أواخر الأربعينات من القرن المشار إليه وانتهى بإعدام سعادته بعد محاكمة غير شرعية وغير قانونية لم تكن تتناسب أبداً مع ادعاءات بعض اللبنانيين وقتذاك وحالياً أن لبنان بلد الاشعاع الفكري والحضاري في المنطقة الشرقية كلها.

كان سليم الحلبي يسكن بالقرب من مبنى المحكمة العسكرية اللبنانية في بيروت. وفي إحدى الأمسيات، خرج كعادته للسير على الرصيف العريض الذي يطل عليه مبنى المحكمة. وما أن اقترب منه حتى أمره أحد حراس المبنى بلهجة فظة وغير مهذبة أن يبتعد بأمر من السلطة اللبنانية المعنية. لكن سليم اعتبر النهي إهانة على اعتباره أنه لبناني ولم يرتكب ما يستدعي منعه بفضاظة من السير حيثما يشاء. تم اعتقال سليم وزجه في السجن في قاووش يعج بالسوريين القوميين الاجتماعيين.

قال لي أحد القوميين الاجتماعيين بعد فترة من الزمن أن ذلك الشخص (سليم) دخل الى حيث يريد أن يقضي حاجة طبيعية ورأى أن يدا وضعت صورة سعادته على جدار المرحاض. ساءه هذا الأمر فانتزع الصورة وخبأها في جيبه وعندما جاء من يسأل بغضب شديد عن الشخص الذي تجرأ على نزع صورة سعادته من على جدار المرحاض نهض سليم وقال أنه هو الذي "فعلها" وقال أن صورة انسان كسعادته يجب أن تكون في غير ذلك المكان وأن تحترم. فكانت النتيجة أنه نال عقاباً شديداً تضمن الضرب المبرح والإهانة والشتم ولم يحترم من ضربه مكانته العلمية ولا إنسانيته ولا تقدمه في السن.

بعد سنوات من هذا الحدث مرض سليم ثم توفي. زرتة قبل وفاته بفترة قصيرة وبعد المجاملات سألتني عما اذا كنت قرأت أدبيات أنطون سعادته وحثني بالحاح بيّن وبقوة على الاستزادة من هذه الأدبيات. واسترسل وقال إنه كان منذ طفولته يتغنى بالعرب والعروبة الى أن بدأ يقرأ سعادته بعدما دعوته إلى ذلك في الماضي. قال أنه لم يلتق حتى ذلك الوقت إنساناً بدأ نشاطه الفكري بأن طرح على نفسه سؤالين عمليين وفلسفيين في آن: مالذي جلب على شعبي هذا الويل (ويل ما شاهده السوريون قبل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها وبعدها) ثم السؤال الأهم "من نحن؟". وزاد سليم على ذلك فقال إن جواب سعادته على سؤاليه اتصف بالجدية والعمق وبخروجه على العالم بشئ جديد هو القومية الاجتماعية. وكتب ينادي بقيم كانت ولا تزال بلادنا بل بلاد العالم كله بحاجة اليها وهي الحرية والواجب والنظام والقوة، وهي قيم كلها حق وخير وجمال. لقد جاء سعادته بحلول عملية واقعية تعالج أوضاع جماعة من البشر اعتبرها أمته. لم يطرح شعارات كلامية لا معنى لها مثل "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة". فلا الأمة العربية الواحدة موجودة بالفعل ولا يوجد رسالة خالدة الا في كلمات الشعار.

لقد انطلق سعادته فيما كانت جماعات لا بأس بتعدادها في أمته تعتبر أن وطنها هو بساط الصلاة أي كما قال أحدهم أن وطنه هو حيث يستطيع أن يمد هذا البساط ويصلي عليه لله تعالى. وكان في أمته من ينشد "بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان ومن نجد الى...تطوان.. الخ... وكان في أمته من يعتبر العالم كله أمة واحدة رغم أن فيها الأميركي واليهودي وبقية القصة معروفة لا تحتاج إلى مزيد من التوضيح. وكان في أمته من

لقد انطلق سعادته فيما كانت
جماعات لا بأس بتعدادها
في أمته تعتبر أن وطنها هو
بساط الصلاة.

يرحب بالغزو الصهيوني للجزء الجنوبي من سورية ويدعو للتحالف مع هذا الغازي البربري اللئيم. وكان في أمته أيضا من كان يحمل على كتفه سفير دولة مجاورة في بيروت فيما كانت دولة السفير تسلخ عن سورية الطبيعية جزءا كبيرا منها.

يجب على الإنسان الذي يهمله أمر ساكني سورية الطبيعية أن يمعن النظر في كل ما قاله سعادته فالرجل كان في غاية الجدية والالتزام بما اعتقد أن فيه ما يسعد أمته وينيلها المجد والعز والقوة لقد وصف سعادته الحياة بأنها "كلها وقفة عز فقط"، ووقف هو هذه الوقفة عندما شكر جلاديه، وهو ما لم يفعله أحد غيره من أصحاب الاحزاب والعقائد.

لقد رأيت في قاووش سجن الدولة اللبنانية جماعة من تلاميذ سعادته يتصرفون وكأنهم أسرة واحدة فيهم من جميع الطوائف اللبنانية وفيهم الأستاذ الجامعي والفلاح العادي. وختم سليم كلامه بأن قال "إن سعادته لم ولن يتخطاه الزمن، فالأمة بحاجة إلى ما جاء به إلى أن ترتاح من أوجاعها ومشاكلها التي تزداد وتتفاقم، وإلى أن تحيا حياة العز والرفاه والعطاء. أدعو الجميع إلى أن يقرأوا سعادته بتأن وعناية وتبصر. (كان سليم يدلي بهذا كله في نهاية السبعينات من القرن الماضي بعدما كان لبنان قد شهد عامين تقريبا من التذابح والتشاتم الأهلي). لم يفه سعادته بكلمة مجافية للمنطق والتعقل أو بعيدة عن محبة أمته والاستعداد للتضحية من أجلها." وختم سليم أن ما شاهده في سجن الدولة اللبنانية حيث كان تلامذة سعادته يتصرفون وكأنهم أسرة واحدة متماسكة رغم اختلاف مذاهبهم ومناطق إقامتهم ومستوياتهم العلمية والفكرية ما جعله يقر بأن ذلك معجزة ونجاح باهر وأعرب عن عميق حزنه لأن سعادته قتل بدلاً من أن يُفسح له المجال لكي يواصل عملية الهداية الإعجازية التي بدأها.

لقد أشاع سعادته بين تلامذته روح الإخاء والمحبة والرغبة المشتركة في اعلاء شأن سورية؛ لا يسأل الواحد منهم عن انتماءات رفيقه طالما أنه أقسم أن يكون ولاءه للقومية السورية وللأمة السورية وطالما أنه يعشق أرض سورية وتاريخها والسوريين جميعاً، ويود أن يشارك في إعادة هذه الأمة العظيمة إلى العطاء الإنساني السخي.

لقد برز سعادته في أمة مزقتها ويمعن في تمزيقها أعداؤها وبعض أبنائها، في أمة نشأت فيها طبقة من المتعلمين الذين أخطأوا إذ ظنوا أنهم مثقفون بينما الفرق كبير بين المتعلم والمتقف. لقد واجه سعادته مشاكل اجتماعية يستعصي حلها لم يواجهها أي مصلح آخر في التاريخ فلم ييأس وظل حتى آخر رفق في حياته القصيرة يحب أمته السورية ويعلمها ويهديها. لقد طرح سعادته مفاهيم جديدة محددة لا غموض فيها ولا تتحمل تأويلات وتفسيرات وتحدث للمرة الأولى في تاريخ المنطقة الحديث بلغة العقل والتحليل والتعليم وتحدث عن أهداف واضحة لا لبس فيها ولا مبالغات.